

سلسلة: إتحاف الحاضر والبادي بتفريغ أشرطة العلامة الشيخ محمد بن هادي (٢٩)

كَلِمَةٌ وَعُظِيَّةٌ مُؤَثَّرَةٌ بِعُنْوَانٍ:

اغْتِنَامُ الْأَوْقَاتِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ

مُحَمَّدِ بْنِ هَادِي الْمَذْحَلِيِّ - حَفَظَهُ اللَّهُ -

وهي عبارة عن كلمة ألقاها فضيلته قبل تعليقه على كتاب «منتقى الأخبار»،

في الدرس العشرين، يوم الإثنين الحادي عشر من شهر رمضان عام ١٤٤١ هـ

إِعْدَادُ

أَبِي قُصَيِّ الْمَدَنِيِّ

- عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ وَالِدَيْهِ وَمَشَائِخِهِ وَالْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ -

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة وعظية مؤثرة بعنوان: اغتنام الأوقات بالأعمال الصالحات

لفضيلة الشيخ محمد بن هادي المدخلي - حفظه الله -

السلام عليكم -أيها الإخوة في الله- ورحمة الله وبركاته، وحيّاكم الله -معاشر الإخوة المستمعين- أينما كنتم، ونحن في هذا اليوم -معاشر الإخوة الكرام- الحادي عشر من شهر رمضان، فلا إله إلا الله، انقضت عشرٌ من هذا الشهر، انقضت العشر الأولى، وها نحن اليوم ما بقي إلا ساعة أو ساعتان من غروب شمس اليوم الحادي عشر، وهو أول أيام العشر الوسطى، وكما قيل:

مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْأَيَّامِ وَأَسْرَعَ الْأَيَّامِ فِي الْأَعْوَامِ

وكلها -معاشر الإخوة- كلها من العمر، والعمر ينقضي سريعاً، والعبد لا يشعر به، فإذا مرّت أيامه ولياليه وحانت ساعة الرحيل؛ حينئذٍ يعرف العبد مقدار ما فرّط، ويعرف العبد كيف هو كان في أيامه الماضية متساهلاً أو مفرطاً، وحينئذٍ المسيء يندم على عدم التوبة والمسارة إلى الله بها، والمبادرة إلى الأعمال الصالحات، والتزود منها، **والصالح يندم على ذهاب الوقت عليه، ويندم على تضييع الساعات منه، فالكل نادم.**

فيا -معاشر الإخوان-: علينا باغتنام الأوقات، وانتهاز الفرص، واقتناصها، فإننا -معاشر العباد- راحلون عن هذه الدنيا، وإن أعظم ما تقربنا به إلى الله الفرائض. فلنحرص -أيها الإخوة- على تأدية فرائض الله بالكمال والتمام، والخشوع والخضوع، والتواضع، والانكسار لله -جل وعلا- من غير عُجْبٍ ولا استكبار.

والحذر الحذر - معاشر الإخوة - الحذر الحذر من التفاخر، والعُجب، والتكاثر، والكبر،
والله الله - معاشر الإخوة - الله الله في الإخبات، والتواضع، والتشمير إلى الخير في الأعمال، فإنَّ
هذا هو سبيل الفوز برضا الرب - جل وعلا -.

وَإِذَا فَرَطَ مِنَ الْإِنْسَانِ بَادِرُهُ إِثْمٌ بِأَنْ ارْتَكَبَ أَيُّ مَنَّا وَلَا بُدَّ فَإِنَّ كُلَّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، فَإِذَا
فَرَطَ مَنَّا بَادِرَةٌ بَارْتِكَابِ إِثْمٍ، أَوْ فَعَلَ مِنْكَرٌ؛ اللَّهُ اللَّهُ - معاشر الأحبة - علينا بالإقلاع فوراً،
والتوبة النصوح، فإنَّا وإن سَتَرَ علينا في الدنيا فإنَّ أماننا يوم الدين، يوم تُبلى السرائر، يوم
المجازاة على الأعمال، كما قال - جل وعلا -: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۚ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

فأوصي نفسي وإياكم - معاشر الأحبة - بالتمسك بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، كما قال
- جل وعلا -: ﴿فَأَسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣].
قال - جل وعلا -: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

قال ﷺ: (فعلیکم بسنتي وسنة الخلفاء، الراشدين المهديين من بعدي، تمسکوا بها،
وعصوا علیها بالنواجد)، الله الله - معاشر الأحبة - في الاقتداء والاتباع، التمسك بالكتاب
والسنة، والاقتداء بأصحاب رسول الله ﷺ، وسلفنا الصالح، والاقتداء بالعلماء العاملين،
العاملين بعلمهم، الذين جعلوا الدنيا مطيةً للآخرة.

طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا	إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا فُطِنَا
أَنَّهُ لَيْسَتْ لِحَيٍّ سَكْنَا	نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا
صَالِحِ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُفْنَا	جَعَلُوهَا جُتَّةً وَاتَّخَذُوا

فالحذر كل الحذر - أيها الإخوة - من التفريط، والله الله في التمسك والاتباع والاقتداء
بأهل الفضل والصلاح، والحذر كل الحذر من المتسمين بالعلم الذين هدفهم الدنيا فقط،

فضررهم عظيم، هؤلاء إنما تجدونهم في مواقف أهل الدنيا، وأصحاب الدنيا، فإذا ما طلبتموهم في أعمال البرِّ وجدتم كثيرًا منهم أعمالهم تخالف أقوالهم، فضررهم عظيم، وشرُّهم على الأمة جسيم، فكيف بمن انتسب إلى العلم وهو في الحقيقة ليس من أهله! وإنما هو كلابس ثوبي زور، فالله الله - معشر الأحبة - لا ننخدع بهؤلاء.

وعلينا - معشر الأحبة -: أن نحرص كل الحرص في المكاسب، فلنطيب مكاسبنا، فتطيب مطاعمنا، فيستجاب دعائنا، فعلينا بالاحتشام عن المكاسب الدنيئة الخبيثة، فإنها سبب لعدم قبول الدعاء.

وعلينا - معشر الأحبة -: أن نحرص كل الحرص أي يكون زمان مقامنا في هذه الدنيا مصروفًا على العمل بالكتاب والسنة، ومتى كنا بهذه الصفة سهل - والله - علينا ما صعب على غيرنا، وكان ما يحصل لنا من شرف الفضيلة في التمسك بالكتاب والسنة والاتباع وترك الابتداع، كان ما يحصل لنا من شرف هذه الفضيلة عند الله - جل وعلا - أعظم من ذخائر الأموال، لأن الدنيا تفتنى، والثواب عند الله هو الذي يبقى، كما قال - جل وعلا -: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۖ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

قال - جل وعلا -: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

فعلينا - معشر الأحبة -: أن نصلح ظواهرنا وبواطننا، وألا نخالف الصواب، وعلينا أن نشاور النصحاء، لنأمن من الندامة، إذا شاورنا الناصح أمانًا من الندامة، وسَلِمْنَا من الملامة.

وعلينا - معشر الأحبة - في هذا الشهر: أن تكون أفواهنا مملوءة بحمد الله، وذكره، وألسنتنا رطبة بذكره وشكره، والثناء عليه، وتقديسه، وتنزيهه عن النقائص والعيوب. وليكن همنا في هذا الشهر مصروفًا إلى طاعة الله - سبحانه وتعالى -.

ولنجهتهد - معاشر الأحبة - في الدعاء إلى الله - سبحانه وتعالى - في هذا الشهر، في دعائه
- سبحانه وتعالى - بقلوبٍ سليمة، موافقةً لاعتقاداتٍ مستقيمة، فإنه حينئذٍ يستجيب لنا،
ويبلغنا ما نؤمل، ويفتح لنا أبواب الخير في مساعيها جميعاً، وتوجهاتنا، ويعصمنا من الشرور،
يعصمنا من أفكار السوء، ويحفظ أنفسنا من المكاره، وينجينا من الوقوع في شرك وفخاخ
الآثام، ويرد عنا المخاوف - سبحانه وتعالى -، لأنه - جل وعز - هو الذي بيده كل شيء، فما من
دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها، - سبحانه وتعالى -.

وعلينا - معاشر الأحبة - : أن نكتسب الأصدقاء الأخيار، ونقدّم لهم الاختبار، فنعرفهم
قبل الاستئمان إليهم، وألا نعجل بالثقة قبل أن نختبر حالهم، فيلحقنا الأسف والندم، وتنالنا
حينئذٍ المضرة، نسأل الله - جل وعلا - العافية.

كما قال الشاعر:

أَبْلُ الرَّجَالِ إِذَا أَرَدْتَ إِخَاءَهُمْ وَتَوَسَّسَ مِنْ أُمُورِهِمْ وَتَفَقَّدَ
فَإِذَا وَجَدْتَ أَخَا الْأَمَانَةِ وَالتَّقَى فِيهِ الْيَدَيْنِ قَرِيرَ عَيْنٍ فَاشْدُدْ

فإنَّ صحبة أهل الصلاح تورث في القلب الصلاح، وصحبة أهل الشر والفساد تورث
في القلب الفساد والانحراف والعناد.

وأخوكم - معاشر الإخوة - هو من عرفكم بعيوبكم، وصديقكم هو من حذركم من
ذنوبكم، ولذلك إن صحبت هؤلاء وصحبنا جميعاً هؤلاء حصل الخير، وصلحت السريرة
والعلانية.

ولا يمكن أن يكون العبد ولياً لله في الظاهر وهو عدوٌ له في السر، مهما كان، لأنَّ الله
- سبحانه وتعالى - سيكشفه.

واعلموا -رحمني الله وإياكم- أنَّ كل ما يشغل عن الله وعن الاستعداد للرحيل إليه فهو شؤمٌ، نسأل الله العافية والسلامة.

فإذا كانت الآخرة تطلب بصلاح القلب الذي يورث صلاح الأعمال فإنَّ الدنيا تزاحمها، وإذا كانت الدنيا في القلب لم تزاحمها الآخرة، لماذا؟ لأنَّ الآخرة كريمة، فلا تزاحم هذه الدنيا الدنيَّة، فلنجعل الآخرة في قلوبنا.

ومن أعطاه الله مِنَّا فضلاً من الدنيا فيحمد الله، وليكثر من شكره، وذكره، ولا يفخرنَّ على إخوانه، ولا يدخلنَّه الكبر، والعُجب، والتعاضم، فإنَّ خير الناس شرفاً من بدَّل السَّوء وسُنَّة السَّوء بالسُّنَّة الصَّالحة، وشر الناس من بدَّل السُّنَّة الصَّالحة الحسنة بالسُّنَّة السَّوء.

وعلينا -معاشر الأحبة- أن نجتهد، وأن نعلم أن من لا عقل له ولا حكمة له ولا رغبة له في الأدب والنجاة والسلامة؛ هذا الذي لا يبالي ما عمل بديناه.

ولنعلم أنَّ العلم أعظم ما يرشدنا إلى الله -سبحانه وتعالى-، فلنجد به على أنفسنا أولاً في تحصيلنا له، ثم بعد ذلك على غيرنا في تعليمنا إياهم.

فإنَّ من جاد بالعلم والحكمة فهو أفضل ممن جاد بالمال، فإن من جاد بالعلم والحكمة بقي ذِكْرُه، والمال يفنى ذِكْرُه بذهاب المُنفِقِ والمُنْفَقِ عليه.

ونسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يوفقنا وإياكم جميعاً لما يحبه ويرضاه، وأن يجنِّبنا ممن يَظُبُّ غيره ونفسه ممتنعة عن العلاج.

هَلَا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمِ	أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمَعْلَمُ غَيْرُهُ
كَيْمَا يَصِحُّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمٌ	تَصِفُ الدَّوَاءَ لَذِي السَّقَامِ مِنَ الضَّنَى

إلى آخر ما هو في هذا الباب عن الصالحين من الأقوال الماثورة، والحكم المنشورة -رحمهم الله-.

فلا نكن يا عباد الله ممن تعلّم وطبّ غيره، ولا يَطْبُ نفسه، فنسأل الله - سبحانه وتعالى -
بأسمائِهِ الحسنَى وصفاته العلى أن يوفّقنا وإياكم جميعاً لما يحبُّ ويرضى، من استغلال الأوقات
الفاضلات في أشرف الطاعات، ونحن في هذا الشهر - كما قلنا -، قد بدأنا في ثلثه الثاني، فنسأل
الله الإعانة والتوفيق والتسديد.

ونحن الآن كلامنا كله في نوافل الأعمال الصالحات، فناسب ذلك أن نتكلم بهذه الكلمات
سائلين الله - جل وعلا - أن ينفعنا وإياكم.

إِعْدَادُ

أَبِي قُصَيِّ الْمَدَنِيِّ

- عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ وَالِدَيْهِ وَمَشَائِخِهِ وَالْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ -

فِي صَبَاحِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ عَامٍ وَاحِدٍ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِئَةٍ وَأَلْفٍ مِنَ الْهِجْرَةِ